من دلالات العدول الصوتي في الفاصلة القرآنية
سورة (الضّحى) أنموذجا

د/ سليم سعداني: جامعة حمة لخضر الوادي.

ملخص: نودّ من خلال هذا المقال دراسة ظاهرة العدول الصّوتي، والعدول ظاهرة أسلوبية، تتحققّ بوجود خلفية يتم الخروج عنها في مستويات الدراسة اللسانية المعروفة، غير أنّ المستوى الصّوتي تختلف خلفيته القاعدية عن غيره من المستويات، إذ ليست القاعدة خارج النّص، بل هي نمط محدّد يحدثه النّص ذاته، ثمّ يعدل عنه، وذلك ما يمكن أن نرصده في قضيّة الفاصلة القرآنية، إذ قد نلاحظ تشكيلات مختلفة تمثّل هذا النّوع من العدول، وعليه فسيقسّم بحثنا إلى قسمين: قسم نظري يبرز خصائص العدول عامّة والعدول الصّوتي خاصّة، وقسم تطبيقي نحاول من خلاله رصد مواطن العدول الصّوتي في واحدة من سور القرآن الكريم وهي سورة الضّحى ثمّ إبراز ما بدا لنا من دلالاتها.

Abstract- Throughout this article we aim to study the phenomenon of phonological deviation. Deviation is a stylistic phenomenon, which could be realized with the existence of a background, from which it could occur an evoid in the levels of the known linguistic study. However, phonological level has its own background that differs from the other of levels, where the rule is not out of the text, but it is a specific style that the text itself makes, then it deviates from it. This is what we can observe in the issue of the Quranic verse ending (Al-Fasila Al_Quraniya), where we may notice a variety of formations, which characterize this type of deviation. Hence, this research will be divided into two section: A theoretical section that shows the characteristics of deviation in general and phonological deviation in particular, and a practical section through which we will attempt to track the aspects of phonological deviation in surat AdDuha from the holy Quran, then showing the significances that appear.

إذا أمعنا النّظر في هذا الكون الفسيح المحيط بنا، وجدناه قد خُلق على مبدإ ذي إيقاع منسجم منتظم، يقول تعالى:﴿ الذِي أَحْسنَ كُلَّ شيْء خَلقَه وبَدَأَ خَلْقَ الإنْسَان مِنْ طِين﴾،[السجدة:7] فحياتنا ليل فنهار فليل فنهار، وهي فصول متناوبة بانتظام، وهي ذاتها نتيجة لانتظام إيقاع آخر يتمثل في حركة أجرام سماوية، كواكب وأقمار وما الإنسان إلّا جزء من هذا الكون المخلوق، شمله هذا النّظام، بل هو الصّورة التّي يتجسّد فيها حسن الانسجام الخَلْقِي، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين:4] ويقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[الاسراء:70]، ثمّ إذا عدنا وأنعمنا النّظر ثانية في خلق الإنسان وجدنا ذروة تجلّي تفضيله، بهذا البيان الذّي كرّمه به الله، يقول تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ۞﴾

[الرحمن:1-4]، فذِكْرُ خلق الإنسان في هذه الآية الكريمة محصور بين نوعين من الكلام، القرآن وهو كلام الله وبين البيان الذي عُلّمه الإنسان.

ولما كان هذا الكون المخلوق بما فيه الإنسان مبنيّا على انسجام لا يخلو من إيقاع ونظام مضبوط، وهذا الكون ذاته مسخّر لهذا الإنسان ليؤدي مهمّة خاصة، وهي الغاية من خلقه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:56]، اختار الله وسيلة الدّعوة إليه كلامه المقدّس، فجاء منسجما مع خلق الكون والإنسان، ليتناسق مع كيانه، فلا يخاطب سمعه فحسب بل أحاسيسه وروحه كذلك.

فقد لفتت الخاصة الصوّتية للقرآن الكريم بإيقاعها المعجز حاسّة السّمع، ولامست نفسية وأحاسيس المتلقّي، خاصّة في الوسط العربي الذي نزل فيه، فكانت إحدى دلائل الإعجاز والهداية لمن شرح الله صدره للإيمان، فهذا الرّافعي يجعل من النّظم الصّوتي في القرآن الكريم ليس آية للتّأمّل فقط، بل يعزي إليه دور المهذّب والمعلّم للسليقة العربية في هذا المجال فيقول:«ولقد كان هذا النّظم عينه هو الذي صفّى طباع البلغاء بعد الإسلام، وتولّى تربية الذّوق الموسيقي اللّغوي فيهم، حتّى كان لهم من محاسن التركيب في أساليبهم - مما يرجع إلى تساوق النظم واستواء التأليف- ما لم يكن مثله للعرب من قبلهم، وحتّى خرجوا عن طرق العرب في السّجع والتّرسل على جفاء كان فيها»[1]، وصور الإيقاع المعجز متمثّلة في القرآن الكريم في حركاته وحروفه وكلماته وآياته وفي السّور منفردة ومجتمعة، إنّه كلام اللّه.

وبحثنا متعلّق بالفاصلة القرآنية من حيثُ عدولها عمّا سبقها، ولهذا العدول عدّة أشكال، غير مطردة، إنّما يحكمها نظام معجز، يختلف من سورة إلى سورة ومن جزء من سورة إلى جزء آخر فيها، وهو ما سنلاحظه في سورة الضّحى، ولعلّه من الأولى قبل ذلك تقديم عرضٍ نظري يؤسّس لهذه الدّراسة قبل الخوض فيها وذلك فيما يلي:

الفاصلة القرآنية:

جاء في مادة (ف ص ل) لغة، في لسان العرب :« الفاصِلة الخَرزة التي تفصِل بين الخَرزتين في النِّظام، وقد فَصَّلَ النَّظْمَ. وعِقْد مفصَّل أَي جعل بين كل لؤلؤتين خرزة.»[2] ولهذا التعريف علاقة بالتعريفات الاصطلاحية للفاصلة على اختلافها، كونها تأتي بين كلامين، سواء كان ذلك حسب الآيات لمن رأى الفواصل رؤوس الآي، أو حسب الوقف، كان داخل الآية أو نهايتها، ومن التعريفات الاصطلاحية التي تذهب إلى ما ذكرناه، قول الزركشي ومن نقل عنهم: «هي كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع،...وفرّق الإمام أبو عمرو الداني بين الفواصل ورؤوس الآي، قال أمّا الفاصلة فهي الكلام المنفصل (عمّا بعده، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس، وكذلك الفواصل يكنّ رؤوس آي وغيرها، وكلّ رأس آية فاصلة، وليس كلّ فاصلة رأس آية»[3]، يقول صاحب الفاصلة القرآنيّة، بعد استقصاء عدّة تعريفات: «بوسعنا الآن أن نخرج بتعريف للفاصلة، جامع مانع، مع شيء من التّوفيق والتّدقيق، فنقول: الفاصلة – كلمة آخر الآية كقافية الشّعر وسجعة النّثر- توافق أواخر الآي في حروف الرّوي، أو في الوزن، ممّا يقتضيه المعنى، وتستريح إليه النّفوس.»[4] وهذا هو الرأي الغالب.

للفاصلة أثر جمالي موسيقيّ بديع، لاحظه العربي وتذوّقه ووجد تشابها بينه وبين موسيقى السّجع التي يعرفها، غير أنّ صوت الفاصلة لاينفك عن دلالة وغاية، بل ما هو إلاّ تابع لأداء تلك الغاية، خلافا للسجع الذي لا يجيئ أحيانا خادما للمعنى بل المعنى خادما له، وهذا ما دفع مجموعة من العلماء إلى منع استعمال هذا المصطلح (السّجع) في القرآن الكريم، خشية أن يُتصور حاله كما في النّثر، ومن هؤلاء، الرماني حين رأى أنّ :« الفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها.»[5] ويذهب ابن سنان الخفاجي إلى غير هذا رادّا على الرماني، أن الفواصل ضربان، منها ما هو مسجوع وهو ما تماثلت حروفه في المقاطع ومنها ما لا يكون مسجوعا وهو ما تقاربت حروفه في المقاطع، وكلا النّوعين ورد في القرآن على أتمّ وجه،[6] وقد فصّل منير سلطان الفرق بين السّجع والفاصلة وخلص كنتيجة لتفصيله فقال: «فالسجع وصف لظاهرة صوتية (إيقاعيّة) والفاصلة وصف للحد الذي يقف بين جملة انتهى معناها، وأخرى ابتدأ معناها»[7] ولأنّ الفاصلة تحمل غالبا تلك الظّاهرة الإيقاعيّة، فهي تحتوي السجع ولا يحتويها، غير أنّنا ينبغي أن نلاحظ على قول منير سلطان أنّ الفاصلة وصف لحدّ جملة انتهى معناها، غير مطرد في القرآن، فهناك عدّة شواهد قرآنيّة خالفت هذه القاعدة، قوله تعالى مثلا: ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۞ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞﴾ [الصّافات:151-152]، وقوله أيضا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞﴾ [الماعون:4-5]، فلم يتم المعنى في آيات الصافات بالفاصلة (ليقولون)، وكذلك في آيات الماعون في فاصلة (للمصلين)، وفي ذلك نكتة يذكرها الدّارسون، مفادها أنّ في ذلك تنشيطا للذهن، وإثارة للتشويق لما سيقولون، ولم الويل؟![8] ومن خلال ما تقدّم في مصطلح الفاصلة والسّجع، يبدو أن الاتّفاق قائم بين المانعين والمجزين لاستعمال مصطلح السّجع في القرآن على أنّه كائن فيه، والمانع هو تنزيه في التّسمية فهذا ابن سنان بعدما سوّغ إطلاق السّجع في القرآن، يلتمس بكلّ موضوعيّة العذر لمن منعوه فيقول: «وأظنّ الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كلّ ما في القرآن فواصل، ولم يسمّوا ما تماثلت حروفه سجعا، رغبة في تنزيه القرآن عن الوصف اللّاحق بغيره من الكلام المرويّ عن الكهنة وغيرهم.»[9] وأميل إلى ما رآه ابن سنان مبتعدا قدر الإمكان عن المصطلحات الشعرية والموسيقية الصرفة التي يميل إلى استعمالها الحداثيون في أثناء بحوثهم القرآنية ذات الصّلة بالإيقاع، تنزيها للقرآن الكريم.

مظاهر العدول الصّوتي للفاصلة القرآنيّة:

عند تلاوتنا للقرآن الكريم نحس وندرك - حسب مؤهلات المتلقي- أن الذي نسمعه أو نتلوه هو قرآن كريم، وذلك لعدّة خصائص في هذا الكتاب المعجز، وأبرز تلك الخصائص وقعه الموسيقي الذي تحدثه فواصله برويّها، يشهد بذلك أرباب البيان حتّى من غير المؤمنين ومقولة الوليد عند سماعه القرآن شهيرة غير أن هذا الإيقاع في الفواصل غير مطرد في جميع آي القرآن الكريم، يقول الدّاني: « وقد تجيئ آي سّور القرآن مبنيّة على ضرب من التّشاكل متّفق غير مختلف، وقد تجيئ على ضربين مختلفين، وعلى أضرب مختلفة، وقد يختلط ذلك التّشاكل بعضه ببعض ويتقدّم ويتأخّر في السورة الواحدة وفي السّور الكثيرة،

وتقع بين ذلك فواصل نوادر، وذلك من الإعجاز المخصوص به القرآن الذي أخرس الفصحاء والبلغاء وأعجز الألبّاء والفقهاء»[10] وبتعبير آخر يقول محمد الحسناوي:«لم تلتزم فواصل القرآن العزيز حرف الرّوي دائما التزام الشّعر والسجع، ولم تهمله إهمال النثر المرسل، بل كانت لها صبغتها المتميّزة في الالتزام والتّحرّر من الالتزام، فهناك الفواصل المتماثلة والمتقاربة والمنفردة.»[11] والذي يعنينا في بحثنا هو ظاهرة عدم الالتزام بعد الالتزام، وهو العدول الذي ننشد دراسته، ولأنّ خلفية العدول هي الأساس الذي تبرز على سطحها هذه الظاهرة، يحسن أن نذكّر أنّ الخلفيّة هنا من داخل النّص لا من خارجه، إنّها السياق المنتشر في النّص القرآني على مستوى مجموعة من السور، أو على مستوى سلسلة محدّدة من الفواصل في السّورة الواحدة، ويعرف بالعدول الدّاخلي، يقول صلاح فضل:«ويبدو الانحراف الدّاخلي عندما تنفصل وحدة لغوية ذات انتشار محدود عن القاعدة المسيطرة على النّص.»[12]، وهذا ذو علاقة وطيدة بما رآه ميشال ريفاتير، في أهم خاصية للأسلوبية عنده وهو ما يطلق عليه (التضاد البنيوي) و«هو (نموذج لغوي ينكسر بعنصر غير متوقع)، والتضاد النّاجم عن هذا الاختلاف هو المثير الأسلوبي»[13] ويمكن أن تتجسّد مظاهر هذا العدول في ثلاثة مستويات في القرآن الكريم كما يلي:

مظاهر العدول في الفاصلة على مستوى السور حسب المواضيع: أن تتردد نفس القصّة القرآنية في أكثر من سورة بفواصل تختلف عن ورودها في سورة أو سور أخرى.

مظاهر العدول في الفاصلة على مستوى انفراد فاصلة في سلسلة إيقاعيّة[14]: وهو خروج حرف الفاصلة، عن حروف سلسلة من الفواصل، على أن يكون هذا الحرف بعيدا في صفاته أو مخرجه عن حروف السّلسلة التّي وقع فيها، لأن المعول عليه موسيقى الصّوت لا صورته، يقول تمّام حسّان: «في القرآن من الفواصل ما يتشابه جرسه في الأذن ولا يتاطبق بالضّرورة في الحرف»[15] فعدم التّطابق هذا لا يشعر به الحسّ السّمعي إنّما هو من مدركات الحسّ البصري وهنا يكون القرآن الكريم جامعا لمزايا السجع في النثر والقافية في الشّعر.

مظاهر العدول في الفاصلة على مستوى توالي السّلاسل الإيقاعيّة : ويكون في نفس السّورة، وخلفيته هو هيمنة فواصل بحرف موحّد أو ذات وزن موحّد، والعدول فيها هو ظهور سلسلة مغايرة من الفواصل بحرف موحّد كذلك أو وزن موحّد يكون مخالفا للأول، وهذا المستوى هو الذي ستتم فيه هذه الدّراسة في سورة الضّحى.

سورة الضّحى: من السّور الأوائل التي نزلت بمكة المكرّمة، والرّويات متعددّة في سبب نزولها، غير أنّها تُجمع على كونها ردًّا من الله سبحانه وتعالى، على ما أعتقده وقاله كفّار قريش بأنّ الله قد هجر رسوله وقلاه، فنزل الوحي مفنّدا اعتقادهم ومؤيدا نبي الرّحمة.

وتمثّل السورة في بنيتها الإيقاعية نموذجا واضحا للعدول على مستوى الفاصلة، وهو عدول يدخل ضمن النّوع الثّاني الذي أشرنا إليه آنفا أي على مستوى السلاسل الإيقاعيّة، يمكن أن نمثل له كما يلي:

ى	ى	ى	ى	ى	ى	ى	ى	ر	ر	ث

عند تأملنا لحروف فواصل السورة في الجدول السابق يمكن أن نطرح سؤالين:

ما موضع كلّ سلسلة إيقاعيّة من الموضوع الإجمالي للسّورة؟

ما علاقة حرف فاصلة كلّ سلسلة بموضوعها؟

أولا: دلالة العدول حسب طبيعة المواضيع:

ما من شكّ أن تنوع هذه الفواصل له غاية ودلالة بل غايات ودلالات قد يدرك الباحث بعضها وقد لا يدرك، وعدم الإدراك لا يعني مطلقا عدم وجودها، فما من حركة ولا صوت ولا حرف ولا كلمة ولا أدقّ من ذلك أو أعقد في كتاب الله إلّا وله دلالة لا يقوم مقامها غيره، ومن دلالة العدول على مستوى السلاسل الإيقاعية علاقة كلّ سلسلة بموضوع محدد، يخالف بوجه من الأوجه موضوع السّلسلة الثّانية، وفي هذا يقول السيّد خضر: «الفاصلة عنصر أساسي من عناصر التّصوير باللوحة القرآنيّة، حيث إنّ اللوحة...تتبع كلّ آياتها تقريبا فاصلة واحدة أو فواصل متقاربة الإيقاع، حتّى إذا تمّت اللوحة وبدأت لوحة جديدة أو موضوع جديد من موضوعات السّورة تغيّرت الفاصلة، وهي بذلك تدخل عنصرا أساسيّا من عناصر تكوين اللوحة القرآنيّة»[16] وهذا ما بدا لنا من السلاسل المختلفة في قصة سورة الضّحى، وبيان ذلك في ما يلي:

فاللوحة الأولى تمثلها السّلسلة الأولى: {الضّحى- سجى- قلى- الأولى- فترضى- آوى- هدى- أغنى}،هذه سلسلة الآيات(1-8).

واللوحة الثانية تمثلها السلسلة الثانية: {تقْهرْ- تنْهرْ}.

واللوحة الثالثة تمثلها فاصلة واحدة وهي الأخيرة:{ حدّثْ}.

	آيات السلسلة	الموضوع
س1	وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾	طمأنة وتبشير
س2	فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾	نهي
س3	وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾	أمر

فبوجود ثلاث لوحات أو ثلاث سلاسل إيقاعية في السّورة سنجد ثلاثة مواضيع، وهي:

الموضوع الأول: الطّمأنة والتّبشير: الآيات من (1 إلى 8) وحرفها (ى)، وهو موضوع سبب النّزول، إذ أبطا الوحي على سيدنا محمد ﷺ، أيّاما مُخْتَلفا في عددها، فقال المشركون - والرّوايات مختلفة فيمن قال - للرّسول ﷺ :أنّ الله ودّعه وقلاه، وأشهرها ما نسب لمشركي قريش عامة ولأم جميل امرأة أبي لهب خاصة[17]، فهذه الآيات الثّمانية الأولى من السّورة بنفس الوقع الصوتي للفاصلة، مثّلت هذا الموضوع بتدرّج بديع، بُدئ بأبلغ ما يكن للمتكلّم أن يبدأ به إذا أراد إثبات أمر ما أو نفيه وهو القسم، وفي ذلك زيادة طمأنة للحبيب وردع للعدو، ينقل السيوطي في الإتقان عن القشيري قوله: «أن الله ذكر القسم لكمال الحجّة وتأكيدها، وذلك أن الحكم بفصل باثنين: إمّا بالشّهادة وإمّا بالقسم»[18] ويرى بن القيم أن في اختيار الضّحى قبل الليل مطابقة لنور الوحي بعد ظلمة احتباسه[19] فالابتداء بالقسم لتأكيد ما سيذكر في الموضوع وهو أن الله لم يودّع ولم يقل رسوله، وفي ذلك إزاحة هم كان يؤرق النبي عليه الصّلاة والسّلام، وهو كاف لإراحته ﷺ، لكن الرحمن الرّحيم لم يكتف بكشف ذلك الهمّ عن محبوبه، بل حلّ محلّه بشارةً قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ وذلك يعني «أنّ عاقبته أحسن من بدأته، وأن الله خاتم له بأفضل ممّا أعطاه في الدّنيا وفي الآخرة»[20] وسوف يرضيه وهي منّة ما بعدها منّة، وكما بدأ تأكيد موضوع الطّمأنة بالقسم، ختمه بالدّليل الذي لا يجهله أحد من المؤمنين أو المشركين من ذكر منٍ سابقة، قول تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۞ وَوَجَـــدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۞﴾ «والمقصود من هذا إيقاع اليقين في قلوب المشركين بأن ما وعده الله به محقق الوقوع قياسا على ما ذكره من ملازمة لطفه به فيما مضى وهم لا يجهلون ذلك»[21]، وهنا تنتهي السّلسلة الأولى الحاملة للوحة الطّمأنة والتّبشير، لتبدأ السّلسلة الإيقاعية الثّانية.

الموضوع الثّاني النهي: قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ۞﴾ وفي هذا تنبيه وتذكير إذ يستغل القرآن الكريم كلّ حدث ليدعّم به الهدف الأسمى للرّسالة، والمتمثل في قوله ﷺ، «إنما بعثت لأتمم صالحَ الأخلاق»[22] وجاء هذا الموضوع الثّاني منسجما بتحقيق ما يصطلح عليه في البلاغة العربية اللف والنشر المرتب:

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ	فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ
وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ	وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ

فيقابل منّة الإيواء زمن اليتم، واجبُ عدم قهر اليتيم من جهة ، ويقابل منّة الهداية إلى الحقّ، واجبُ الصّبر مع السّائل «لأن الضلال يستدعي السؤال عن الطريق...فجعل الله الشكر عن هدايته إلى طريق الخير أن يوسع باله للسائلين»[23] والآيتان في هذا الموضوع نهيان (لا تقهر، لا تنهر).

الموضوع الثّالث الأمر: قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ، إذا كان الموضوع الأول يصوّر عناية الله التّامة بعبده فيما تتطلبه الرّوح والجسد من هداية وإيواء وإغناء، والموضوع الثّاني ما على العبد أن

يقابل به تلك النّعم من تكاليف، يجيء الموضوع الثّالث الذي يمثّل مقام الشّكر، وهي الآية التي انتهت بها السّورة، وتنسج مع الموضوعين السّابقين غاية خلق الإنسان ومهّمته في الكون، فالنّعم التي بسطها الله توجب ذكرها والإخبار عنها، هذا الذّكر الذي هو ضد الجحود والكفران، يلخّص الغاية من الخلق، لقوله تعالى:﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النّحل78] وقوله: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[الملك:23]. فإذا كانت النقّطة الأولى للإنسان تبدأ من خلقه، فالنّهاية المرجوة هي الشّكر، فتكون مواضيع السّورة: مَنٌّ من الله وعطاء وفضل، ثمّ تكليف يتوّج أخيرا بالشّكر.

ثانيا: دلالة العدول حسب حرف الفاصلة:

لاحظنا أن السّلسلة الإيقاعية الأولى انتهت بحرف (ى) ومتعلّقة بموضوع الطّمأنة والتّبشير، والثّانية بحرف (ر)، ومتعلّقة بموضوع النهي عن قهر اليتيم والنّهي عن نهر السّائل، والثّالثة بحرف (ث)، ومتعلّقة بالأمر بالحديث عن النّعم، ونحن نجزم مع السّيد قطب أن لكلّ ذلك دلالة، بما في ذلك هذا التّنوع الصّوتي، إذ يقول: «فأمّا تنوع أسلوب الموسيقى وإيقاعها بتنوع الأجواء التي تطلق فيها، فلدينا ما نعتمد عليه في الجزم بأنّه يتبع نظاما خاصا وينسجم مع الجو العام باطراد لا يستثنى.»[24] ، كما نسلّم مع حسن عباس أنّ: «معنى الحرف العربي هو صدى صوته في الوجدان أو النّفس»[25] فما دلالة ارتباط كلّ حرف بالموضوع الذي ورد فيه؟

يظهر من امتداد صوت المدّ بالألف دلالة الامتداد في الحدث وتزداد وتيرته بتكرار ذلك الصّوت بوقع منتظم، وترتبط طبيعة الامتداد سلبا أم إيجابا على طبيعة دلالات الكلمات التي ارتبط بها ذلك الصّوت[26]، وفي الموضوع الأول بحرف (ى) يظهر تزايد وتيرة الطّمأنة والتّبشير شيئا فشيئا حتّى يبلغ منتهاه، كأن تلك الألف الممدودة في أوّل فاصلة (الضّحى) تزداد امتدادا (بسجى)، وتزداد أكثر بالموالية فالموالية، حتّى تبلغ أوج الامتداد في الفاصلة الأخيرة من السّلسلة الإيقاعيّة، وهو أوج انتشاء المتلقّي، يقول محمد غنيمي هلال عن توالي النّغم: « تألفه الأذن لتسر به النفس، وهذه طبيعة النفس في إدراكها عن طريق حواسها المختلفة، فإذا رأت العين شكل بلور، سرت بتساوي جوانبه، فإذا اكتشفت بعد ذلك تناسب زواياه تضاعف سرورها وكلما اكتشفت جوانب جديدة منه متساوية، زاد سرورها على قدر اكتشافها، وكذلك الشأن في الأصوات المناسبة»[27]

إذا تأمّلنا بقيّة الآيات في السّورة وجدنا حرفين مختلفين (الرّاء والثّاء) الرّاء كانت للسّلسلة الإيقاعية الثّانية في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۞﴾ والثّاء في السّلسلة الإيقاعية الثّالثة، في قوله تعالى:﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، فما الذي جعل السّلسلة الثّانية تعدل عن الأولى من (ى) إلى (ر)، وما الذي جعل الثّالثة تعدل عن الثّانية من (ر) إلى (ث)؟ وهذا يدفعنا دفعا إلى اليقين بأنّ لتغيّر حرف الفاصلة دلالة بل دلالات متعدّدة، «ولا نرى في هذه الظاهرة الإيقاعية خروجا عن نسق الكلام، لأن في الخروج والمخالفة معان لا تليق بجلال القرآن، ولكن نرى أنها أسلوب قرآني فريد، ولا

نقول في وصفه سوى إنه نسيج وحده،يصح في القرآن الكريم لغايات إعجازية وإن لم يصح في غيره »[28]، فهل الوصول إلى هذه الغايات الإعجازية أمر محالٌ منالُهُ؟

لا يمكن أن يدّعي أيّ شخص إدراك مثل هذه الدّلالات ولا أن يجزم بأن ما بدا له منها هو غاية ما تدلّ عليه، لكن يمكن أن تدلّ الرؤى المقنعة والمنزّهة لكتاب الله على زاوية أو دلالة من بين ما لا يعلم إلّا الله غيرها من الزّوايا والدّلالات، وذلك بتأيد من لدنه سبحانه.

وممّا بدا لنا من العدول الأوّل من حرف (الألف) إلى حرف (الرّاء) طبيعة صوت الحرف وعلاقته بالمعنى الذي ورد فيه، فكلا الصّوتين يشكل نوعا من الاستمرار، الأول (الألف) استمرار متّصل متواصل، وهو يناسب موضوع الطّمأنة التي لو كان فيها انقطاع ما بقيت طمأنة، أمّا الصّوت الثّاني (الرّاء) هو استمرار ينتج عن تكرار الصّوت (ر)، وهو مناسب لأن النّهي عن قهر اليتيم ونهر السّائل، عملان لن يكونا على دوام الحال بل كلّما تتحقّق الموقف استُدعي الالتزام بالنّهي، فالنّهي مستمرّ لكنه غير متواصل، وكلّ من الصّوتين منسجم ومتناسب مع الموضوع الذّي وقع فيه كحرف للفاصلة.

أمّا إذا عدنا للفاصلة الأخيرة التي عدلت عن صوت (الرّاء) إلى صوت (الثّاء) فسنجد لذلك أيضا علاقة بطبيعة الموضوع الذي أمر الله فيه الرّسول ﷺ بالحديث وذكر نعمه عليه، فالغاية من الحديث هو نشره في أوسع نطاق ممكن، وصوت الثّاء يختص بهذه الميزة إذ يحْدث بنوع من الانتشار للهواء المدفوع سالكا عدّة اتّجاهات بين فراغات القواطع العلوية، ممثّلا لانتشار الحديث بنعم الله في شتّى الاتجاهات[29]

نخلص ممّا سبق ذكره أن سورة الضّحى تكوّنت من ثلاث سلاسل إيقاعيّة، مثّلت كلّ سلسلة موضوعا محدّدا، فكان الأول (طمأنة وتبشير)والثّاني (نهي) والثّالث (أمر)، وكان لكلّ سلسلة فاصلة محدّدة ارتبط صوتها بدلالة الموضوع، فوجدنا استمرارية الصّوت متواصلا بصوت (الألف) في السّلسلة الأولى وهو يناسب الطمأنة التي تتطلب الاستمرار دون انقطاع، وكانت فاصلة السلسة الثّانية (الرّاء)، وهي حرف ينتج عن تكرار الصّوت، فهو استمرار غير متصل أي متقطع، وهو يمثل الموضوع الثّاني الذي ورد فيه فاصلةً، فالتّعمال مع اليتيم والسّائل بعدم القهر والنّهر على التّوالي، أمر يستوجب الاستمرار لكن في الزمن الذي يتحقق فيه وجود اليتيم والسّائل، أمّا السّلسة الأخيرة فكان حرف فاصلتها صوت (الثّاء)، الذي تتوافق طبيعة حدوثه من دفع وانتشار للهواء مع طبيعة الموضوع الذي يدعو الرسول ﷺ إلى نشر وذكر نعم الله عليه، والله أعلى وأعلم.

الهوامش :

[1] - مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط9، 1973م، ص215.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، تح عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله،هشام محمد الشاذلي، مادة (ف ص ل)، ص3422.

[3] - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مج1، ج1، تح مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2012م، ص 59-60.

[4] - محمد الحسناوي، الفاصلة في القرآن، دار عمّار، عمان، ط2، 2000م، ص 29.

[5] - علي بن عيسى الرماني، (النكت)، ضمن، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح، محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط5، 2008م، ص97.

[6] - ينظر، ابن سنان، سرّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1982م، ص 172.

[7] - منير سلطان، البديع تأصيل وتجديد، منشأة المعارف، الاسكندريّة، دط، 1986م، ص42.

[8] - ينظر، أحمد محمد صبري، الإعجاز والبيان في فواصل القرآن،دار الصحابة للتراث، طنطا، ط1، 2008م، ص21-22.

[9] - ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، ص174.

[10] - أبو عمرو الدّاني، البيان في عدّ آي القرآن، تح، غانم قدّوري الحمد، مركز التراث والمخطوطات والوثائق، بيروت، ط1، 1994م، ص111.

[11] - محمد الحسناوي، الفاصلة في القرآن، ص145.

[12] - صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1998م، ص211.

[13] - نفسه، ص225.

[14] - من العلماء من عدّ تمام المعنى والوقف فاصلة، فكل رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية، فالفاصلة أعمّ، من هؤلاء، أبو عمر الداني، ينظر كتابه البيان في عدّ القرآن، تح غانم قدّوري، مركز المخطوطات والتراث، ط1، 1994م، ص126

[15] - تمام حسّان، البيان في روائع القرآن، عالم الكتاب، القاهرة، ط1، 1993م، ص275.

[16] - السيد خضر، فواصل الآيات القرآنية دراسة بلاغية دلالية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 2009م، ص152.

[17] - ينظر، السّيوطي، أسباب النّزول، دار الغد الجديد، القاهرة، ط1، 2009م، ص395.

[18] - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن،، تح شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط1، 2011م، ص 675

[19] - ينظر، التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم الجوزية، تح محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1988م، ص100.

[20] - ابن عاشور، التحرير والتّنوير، ج30، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1984م، ص 397.

[21] - نفسه، ج30، ص 399.

[22] - الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد، ج14، رقم الحديث(8952)، تح، شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1997م، ص513.

[23] - ابن عاشور، التحرير والتّنوير، ج30، ص 402.

[24] - سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، مصر، ط16، 2002م، ص 110.

[25] - حسن عباس، خصائص الحروف العربية ومعانيها، منشورات اتّحاد الكتاب العرب،(المقدمة) ، دط، 1998م، ص 6.

[26] - يمكن أن يكون ذلك الامتداد سلبا على المتلقي إذا كان الموضوع بدلالة كلماته يتحدث عن الألم والعذاب كما في آيات سورة...

[27] - محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، دط، 1997م، ص 436.

[28] - عمر عبد الهادي عتيق، ظواهر اسلوبية في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010م،ص329.

[29] - ينظر، سعداني هناء، الحروف العربية دراسة في تطورها والعلاقة بين الرسم والصّوت والمعنى، (أطروحة دكتوراه)، جامعة ورقلة، 2012م،